# أحاديث إصلاح القلوب

## (٢٠)

### تزكية النفس

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَا أَقُولُ لَكُمْ إِلَّا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ كَانَ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَالْهَرَمِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ، اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا**». رواه مسلم[(١)].

في هذا الدُّعاء إشارةٌ وتنبيهٌ إلى أنَّ تزكية النُّفوس بيد الله علَّام الغيوب، وأنَّ مفتاحَها الأعظم هو الدُّعاءُ والافتقارُ إلى الله تعالى، وأمرُ هذه النَّفس عظيمٌ، وشأنها كبيرٌ، قال الله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشَّمس:١-١٠].

فهي «آية كبيرة من آياته الَّتِي هي حقيقة بالإقسام بها؛ فإنَّها في غاية اللُّطف والخِفَّة، سريعة التَّنقُّل والحركة والتَّغيُّر والتَّأثُّر والانفعالات النَّفسيَّة،

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٢).

من الهمِّ، والإرادة، والقصد، والحبِّ، والبغض، وهي الَّتِي لولاها لكان البدن مجرَّد تمثال لا فائدة فيه، وتسويتها على هذا الوجه آية من آيات الله العظيمة»[١].

وقوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾: أصل الزَّكاة: الزِّيادة في الخير، والمُراد أنَّ مَن سعى في تزكية نفسِهِ، وإصلاحها، وسُمُوِّها بالاستكثار من الطَّاعات والخيرات، والابتعاد عن الشُّرور والسَّيِّئات تحقَّق فلاحُه.

وقوله: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾: أصل التَّدْسِية: الإخفاء، فالعاصي قد أخفى نفسَهُ الكريمة بفِعل الآثام، وطَمَرها بالرَّذائل والخسائس، وقَمَعها وأهلكها بفعل العُيُوب، حتَّى صارت نَفْسًا دنيئةً وَضِيعة مُنحطَّة، واستحقَّت بذلك الخيبة والخُسران.

ولمَّا كانت تزكية النَّفس بهذه الأهمِّيَّة وجبَ على كلِّ مسلم ناصِحٍ لنفسِهِ أن يُعنى بها عناية فائقة، وأن يُجاهِدَ نفسَهُ في حياتِهِ على تحقيقِ هذه الغاية الحميدة؛ ليُفلِحَ في دُنياهُ وأُخراه، وينعَمَ بالسَّعادة الحقيقيَّة.

والتَّوحيدُ أصل ما تزكو به النُّفوس، وهو الغاية الَّتِي مِن أجلها خلق الله الخلق وأوجدهم، كما قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذَّاريات:٥٦]، وهو مِحور دعوة الأنبياء والرُّسُل، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا

(١) تيسير الكريم الرَّحمن (ص٩٦٢).

فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النَّحل:٣٦]، وهو أوَّل واجب على المُكَلَّف.

وقد توعَّد الله ﷻ الَّذِين لا يُزَكُّون أنفسهم بالتَّوحيد والإيمان؛ بالعذاب الشَّديد يوم القيامة، فقال سبحانه: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [فصِّلت:٦].

فمتى أخلص العبد الذُّلَّ لله والمحبَّة له خلصت أعماله وصحَّت، وزكت نفسه وطابت، ومتى أدخلَ عليها ما يشُوبُها مِن شوائِبِ الشِّرك دَخَلَ على نفسِهِ مِنَ الدَّنس والتَّدسِية بحسب ذلك.

فلا زكاةَ للنَّفسِ إلَّا بتحقيق التَّوحيدِ، وإفراد الله بالعبادة، وإخلاص العمل له، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ [الزُّمر:٣].

ولا زكاة للنَّفس إلَّا بتخليصِها مِن الشِّرك بجميع أنواعه، وتخليصها من كُلِّ ما يُناقِض التَّوحيدَ ويُضعِفُهُ.

ثمَّ إنَّ من أعظم ما ينال به العبد زكاء نفسه الدُّعاء، فإنَّه مِفتاح زكاة النُّفوس، وفيه يُظْهِر العبد العَجز والافتِقار، والتَّذلل، والانكِسار، والاعتراف بقوَّة الله وقدرته، وله أثرٌ عظيمٌ في فتح أبواب الخير؛ فالدُّعَاء مِفتاحُ كلِّ خير، فكلُّ خيرٍ يرجوه العبد لنفسه من خيرات الدُّنيا والآخرة فبابه الدُّعاء.

لأنَّ زكاة نفس العبد بيد الله، فالله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ هو الَّذِي يزكِّي مَن يشاء،

والأمرُ كلُّه له، وتحتَ مشيئَتِهِ، كما قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء:٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النُّور:٢١].

ومَن علم أنَّ صلاحَ نفسِهِ وزكاتها واستِقامتها بيد الله؛ لجأ إليه، وأقبل على بابه مُلِحًّا عليه بالدُّعاء، راجيًا طامِعًا؛ لينال مِنهُ زكاة نفسِهِ، ونجاتها وفلاحها في الدُّنيا والآخرة.

والقرآنُ الكريم مَنبعُ التَّزكيةِ ومَعِينُها، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران:١٦٤].

فأعظمُ ما تزكو به النَّفس القرآنُ الكريمُ، الَّذِي هو كتابُ التَّزكيةِ ومَنبعُها ومَعينُها ومَصدرها، فمَن أراد لنفسه التَّزكيَّة فليطلبها في كتاب الله.

قال ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «ضَمِنَ الله لمَن اتَّبعَ القرآنَ أن لا يَضِلَّ في الدُّنيا، ولا يشقى في الآخرة، ثمَّ تلا: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه:١٢٣]»(١).

واتِّخاذ الأسوة والقُدوة الصَّالحة نافع غاية النَّفع في التَّزكية للنَّفس، قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنَّف (٣٤٧٨١).

﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه الآية الكريمة أصل كبير في التَّأَسِّي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله»(١).

فاتِّباع الرَّسول ﷺ والتَّأَسِّي به والسَّير على منهاجه القويم هو عين التَّزكية، ولا يمكن الوصول إليها بغير ما جاء به الرَّسول.

ولهذا وجب على مَن أرادَ تزكية نفسه أن يُجاهد نفسه على الاتِّباع، والاقتداء، والتَّأَسِّي بالرَّسول ﷺ، والحذر من المحدثات والمخترعات والطَّرائق المبتدعات الَّتِي يدَّعي أربابها أنَّها تُزَكِّي النُّفوس.

**وحقيقةَ التَّزكية:** تخلية النَّفس **أوَّلًا**؛ بتطهيرها عن الرَّذائل والمعاصي والذُّنوب، ثمَّ تحليتها بعد ذلك بفعل الطَّاعات والقربات، كما قال تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التَّوبة:١٠٣]، فقوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمۡ﴾ فيه إشارةٌ إلى مقامِ التَّخلية عن السَّيِّئات بتطهيرهم من الذُّنوب، وقوله تعالى: ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ فيه إشارة إلى مقام التَّحلية بالفضائل والحسنات، وتقديمُ التَّطهير على التَّزكية من باب تقديم التَّخلية على التَّحلية.

فلا بُدَّ لمَن أراد تزكية نفسِهِ أن يُقلعَ أوَّلًا عن الذُّنوب والآثام الَّتِي تُفسِدُ القلبَ، وتحجِبُ عنه نورَ الهداية والإيمان، كما قال النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ العَبْدَ إِذَا**

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٩١).

**أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُو قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ:** ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]»[(١)].

ثمَّ يُجاهِدُ نفسَهُ على الاستِكثار من الصَّالحات الَّتِي تزكو بها نفسُهُ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالتزكيةُ وإن كان أصلها النَّماء والبركةُ وزيادةُ الخير، فإنَّما تَحْصُلُ بإزالة الشَّرِّ؛ فلهذا صار التَّزكِّي يجمعُ هذا وهذا»[(٢)].

وقال ابن سعديٍّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند قوله الله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء:٤٩]: «أي: بالإيمان والعمل الصَّالح؛ **بالتَّخلِّي** عن الأخلاق الرَّذيلة، **والتَّحلِّي** بالصِّفات الجميلة»[(٣)].

وممَّا يعين العبد على تزكية نفسه تذكُّر الموت، ولقاء الله والوقوف بين يديه ومجازاته العباد بأعمالهم، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٣٣٤)، وحسَّنه الألبانيُّ.

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٩٧).

(٣) تيسير الكريم الرَّحمن (ص١٨٢).

وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر:١٨]، وقال رسول الله ﷺ: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَّاتِ**»(١)، يعني: الموت.

وهو مُدركٌ كلَّ النَّاس لا محالة، وملاقيهم بلا ريب، كما قال الله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة:٨]، وقال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النِّساء:٧٨].

ففي ذكر العبد للموت منفعة عظيمة؛ فبذلك تستيقظُ القلوب الغافلة، وتحيا القلوب الميِّتة، ويحسن إقبال العبد على الله، وتزول عن غفلته وإعراضه عن طاعة الله.

ولا يزالُ العبدُ بخير ما كان ناظرًا لموقِفِه بين يدي الله يوم القيامة ومماته، ومصيره بعد الممات.

قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقول إبراهيم التَّيميُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَثَّلتُ نفسي في الجنَّة؛ آكلُ ثمارَهَا، وأشربُ مِن أنهارِهَا، وأعانِقُ أبكارَها، ثمَّ مَثَّلتُ نفسي في النَّار؛ آكلُ مِن زَقُّومِها، وأشرَبُ مِن صَدِيدها، وأعالِجُ سلاسِلَها وأغلالَها؛ فقلت لنفسي: (أيْ نفسي! أيُّ شيءٍ تريدين؟)، قالت: (أريدُ أن

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٣٠٧)، والنَّسائيُّ (١٨٢٤)، وابن ماجه (٤٢٥٨)، وقال الألبانيُّ: «حسن صحيح».

أُرَدَّ إلى الدُّنيا؛ فأعملَ صالحًا) قال: قلت: (فأنت في الأُمْنِية فاعملي)»[١].

والعبد في هذا المقام بحاجة إلى تَخَيُّر الجلساء وانتقاء الرُّفقاء الَّذِين يُعِينُونه على الخير ويشدُّون من أَزْرِه، كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

وقد قال النَّبِيُّ ﷺ: «**الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ**»[٢].

وأسأل الله تعالى أن يُزكِّي نُفُوسَنا، وأن يُصلحَ أعمالنا، وأن يُسدِّد أقوالنا، وأن يُبصِّرنا بالحقِّ ويَرزقنا اتِّباعه، وأن يهدينا لأحسن الأخلاق والأعمال، وأن يَصرِفَ عنَّا سيِّئَها، وأن يجنِّبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن.

---

(١) رواه ابن أبي الدُّنيا في محاسبة النَّفس (١٠).

(٢) رواه أبو داود (٤٨٣٣)، والتِّرمذيُّ (٢٣٧٨)، وحسَّنه الألبانِيُّ.